

الأحيان - هو أن ما يعرفه عنه ، لا يمكن أن يقابله الآخر بذلك ، وأول ما يعرفه - كما يفترض - هو أن يحوّل الآخر إلى موضوع له ، وليثبت له ، ولذاته ، أنه يراه (على حقيقته) ، حيث يجب أن تكون معرفته لنفسه ، هي البداية - ثمة عين سحرية أكثر كثافة ، كامنة فينا تجاه أنفسنا ! فنحن لا نرى من خلال هذه العين المركبة فينا ، سوى ما نعتبره - غالباً - حقيقتنا الحقّة ، كمالنا الإنساني ، وهذا من شأنه تعزيز موقفنا تجاه ما نحن بصدده ، إذ نندفع في تقييم الآخرين دون تأنٍ ، منطلقين من قناعة ذاتية ، بأن ما نقوم به هو واجب مقدس - بينما بالمقابل لا يكون هناك سوى العماء ، حيث نكون فوق (أنفسنا) عصيين على الرؤية ، وعلى النقد - أليس لهذا السبب ، يغمر أحدهم فرح ونشوة شموليان ، وإحساس بعظمة اكتشاف الآخر وإظهار ما يعتبره حقيقته النهائية ، وعندما يواجه الآخر ، ويحاول إظهار ما لديه من وهم ، أو أن ما يقوله ليس صحيحاً ، أو ليس دقيقاً ، يتلبسه اضطراب واصفرار وجه ، وضيق ملحوظ - حيث يصبح بدوره موضوعاً ! إن مسألة الآخر ، ليست من المسائل البسيطة ، بقدر ما تكون علامة فارقة للكينونة البشرية ، وبدرجات متفاوتة ، والعين السحرية (هذه الجملة المثيرة فعلاً) ، لا تقتصر على السلوك الفردي ، وإنما تشمل الجماعات والشعوب كذلك ! عندما تؤمن كل جماعة أن ما تراه في جماعة أخرى ، هو حقيقتها ، والعكس ليس صحيحاً ، من نظرها - إعجاب المرء - كما يبدو - تاريخياً بنفسه ، سابق على رؤية الآخر ، كامتداد له من ناحية ، كونه شبيهه ، وكمختلف عنه ، من ناحية ثانية - فنحن إذناً ، في إطار الائتلاف والاختلاف - وننسى باستمرار ولأسباب مختلفة ، ما سماها أحدهم بـ(مديح الاختلاف) (1) ، وهو مفهوم بيولوجي يعزّز الاختلاف السيكولوجي كذلك. لعل إعجابنا الذاتي هو الحاجز التاريخي السميك الذي يمنع أحدنا ، بعضنا (يمنعنا جميعاً في مواقف معينة ، وتحت ضغط تاريخي

(1) - النظر " ألبير جاكوار " : مديح الاختلاف " الوراثةيات والبشر " - ترجمة د. إياس حسن -